العَروضُ العربيُّ :
صنعة: الأستاذ الدكتور رضوان النجار
دراسةٌ ونقدٌ

د. أحمد دوّاح

الملحقة الجامعية بمغنية

جامعة تلمسان

توطئة:

من الاتّجاهات العلميّة البارزة في هذا العصر، كثرةُ المؤلّفات واتّساعها والتّعمّق في دقائقَ علميَّة تُمثّل ضروب التّفكير العلمي. وكانتِ المسائلُ العَروضيَّةُ من العلوم التي كثُرت تفريعاتُها،وطرأتْ عليها اتّجاهاتٌ، وَ وِجهاتُ نظرٍ في تفسيرها، و اجتهادات في طرحها بين العلماء والدّارسين، وكانوا في أمر مُختلف،غيرِ مُؤتلف،واستشعر طلاّبُ العَروض صعوباتٍ في التّحصيل،وعجزوا عن إدراك دقائقه وجُزئياته.وأحسُّوا أنّهم بحاجة ماسَّة إلى مَنْ يعرضُ لهم علمي العَروض والقوافي، وقضاياهما وظواهرهما،بطريقة جديدة مُيَسَّرة.

دوافع تأليف كتاب"العَروض العربيِّ":

إنّ كثرة التّأليف في علمي العَروض والقافية لا تَثْـنِي الباحثَ المُستزيد،والرّاغب في وضع لَبِنَة في هذا الصَّرح المُمَرَّد والقصر المَشِيد،لا يثْـنيه عملُ السَّابقين عن جديد في العرض يُضيفهُ،ويجعله ظهيرا لعمل الأمجاد المُتقدِّمين والمتأخِّرين.

وقد اضطلع أستاذنا الأستاذ رضوان النّجّار الذي يُحيط إحاطة شاملة بما يُنسب إليه من علم العَروض، وهو يملكُ الأدواتِ التي تُعينه على التَّأليف والتّيسير. إنّ كتاب (العَروض العربيِّ) للدّكتور رضوان النّجّار صورةٌ من منهج التّأليف العَروضيّ. وهو كتابٌ جليلُ القدْر، عظيمُ الفائدة. وإنّ ممّا دفعه إلى تأليف سلسلة من الكتب في العَروض والقافية جُملةُ عواملَ،لعلّ أهمّها ما يلاحظُ في عصرنا هذا من إهمال بالغ لعلوم العربيَّة على اختلافها،وأخُصُّ بالذّكر علم العروض والقوافي.

ولا نقولُ بدعا عندما نذهبُ إلى أنّ واضعي العلوم العربيّة إنّما قصدوا من وضعها في الأصل إلى تسهيل سُبل تَعَلُّمها ؛لما أنسوا من ابتعاد الأجيال عصرا إثرَ عصر عن التَّعلُّم الحاصل بالفطرة.إذْ كان الأقدمون من أسلافنا يعرفون مُقتضيات علوم العربيّة ويُراعون مبادئها وقواعدها في سلوكهم اللُّغويّ دون علم بها.حتّى جاء على النّاس حينٌ من الدّهر ضعُفت فيه السّلائقُ ولانَتْ فيه أدواتُ الضّبط،فاحتاجوا إلى أن تُدَوَّنَ لهم مبادئُ العلوم،وتُسبك لهم

مفاتيحها.إلى أنْ آل الأمر في هذا الزّمان إلى انصراف النّاس عن كلّ ما في تحصيله أثارةٌ من مشقّة من أنواع العلوم. "ولا بدّ والحال كذلك،من تسهيل سُبُل العلم وتبسيط طرائق توصيله وتحبيبه إلى النّاس.وعلى مَن يُوكل إليهم أمر التّعليم أن يُدركوا هذا،ويأخذوا بأسبابه إن شاؤوا تجارةً لا تبورُ."[1]

وقد وضع المؤلّف الدكتور النجار هذه الأمورَ كلّها نصب عينيه عند إعداده لهذا المُؤلّف الذي ألّفه في علم العَروض، وشرح أبوابه،وتقطيع أبياته،وتلخيص ألقابه،وتبيين أوتاده وأسبابه.ومن شأن معظم الكتّاب في علم العروض أن يُثبتوا في صدر كتاباتهم أنّ العَروض بابٌ صعبٌ وطويلٌ سُلّمُه،وإنّ النّاس قد أحسُّوا منذُ القِدم بهذا التّعقيد،وتلك الصُّعوبة.يُروى أنّ الخليل ذهب إلى الأصمعيّ يطلب علم العَروض ومكث فترة،فلم يُفلح،حتّى يئس الخليل منه،فقال له يوما مُتلطّفا في صرفه حتّى لا يذهب مُغاضبا،فقال له:زِنْ بيتَ الشّاعر:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعْهُ وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ[2].

"فعلم الأصمعيُّ أنّ الخليل قد تأذّى ببُعده عن علم العروض فلم يُعاودهُ فيه[3]."وولّى مُدبرا و لم يُعقّب، فعجِب الخليلُ من فطنته.

وهكذا جاء الأستاذ التّجّار وترك في مؤلّفه العروضيّ ما يُثقل الخطوَ،ويورث التّذمُّر والامتعاض.فالذي كان يشغله هو الوصول إلى الهدف المنشود، دون تعثُّر أو تعويق أو إخلال، وهو تبسيط هذا العلم، و كيفية تعليمه للطُّلاب بصورة سهلة، وأسلوب بسيط، غير متكلّف ولا معقّد،وبعيدا عن الطّرق التّقريريّة، و كان كما قال أبو الحسن العروضيّ: "وشرطُنا أن نُقرّب ما يبعد متناوله، ويُستصعب ركبه، ويُستوعر مسلكه،ولا نُخلّيه من حُجّة تُؤيّدهُ ومذهب يُسنده،وشرح مُستقصى يعضدُهُ"[4].

وقد اقتضت طبيعةُ البحث أن يشتمل على عدّة جُزئيات، منها التّعريف بالكتاب، وإلقاء الضّوء عليه من حيث العنوانُ وأهميتُه، ثمّ إلقاءُ الضّوء على المنهجيّة المتّبعة.

عنوانُ الكتاب:

قال أستاذنا المؤلّف:"وعنوانُ الكتاب يُؤكّد حقيقتين هامّتين هما:

* إنّ العروض علم عربيٌّ لم يُنقل عن اليونانيّة أو الهنديّة كما يدّعي المدّعون.

* و أنّ واضعه هو الخليل بن أحمد الفراهيديّ،وهو عربيٌّ لا يعرف غيرَ العربيّة لغةً له، وبالتّالي لا يُمكنه أن يضع علما عن غير العربيّة."[5]

أوّل ما نلاحظهُ من هذا الكلام أنّ الخليل هو مكتشف علم العروض اكتشافا ليس له سابقةٌ، و لا تُدانيه لاحقةٌ،إذ استطاع أن يرسمه بكلّ أوزانه وحدوده وتفاعيله وتفاريعه،غير مبقٍ لمن جاؤوا مِن بعده شيئا ذا بال يُضيفونه إليه،سوى الشّرح والتّفسير.وكان اكتشافه لعلم العَروض وتأسيسه واستنباطه واستخراجه واستحداثه واختراعه حدثا عظيما،ومُعرجا خطيرا،حيثُ" اتّخذ هيئة الحدِّ الفاصل بين مرحلتين في تاريخ العرب الأدبيّ:مرحلة القول الشعريّ الارتجاليّ المنطلِق على البديهة،الموزون إلهاماً وفطرةً."[6]

ليس فيه كما يقول الجاحظ(تـــ 255ه) :"معاناة ولا مكابدة،ولا إجالة فكر ولا استعانة."[7]

و نُسقط الأفعالَ السّابقةَ كلّها،عدا الفعل(استخرج) الذي يهدينا إليه ياقوت الحمويّ(تـــ626 هـــ) بعبارته التي تقول عن الخليل بن أحمد "...و هو أوّل من استخرج العروض،وضبط اللّغة وحصر أشعار العرب."[8]

و ربّما وجدنا مسندا للفعل (استخرج) في الفعل (استنبط) الذي يرِد في قول ابن خلّكان (تـــ681ه) عن الخليل بن أحمد أيضا :"وهو الذي استنبط علم العَروض وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائرَ، يستخرج منها خمسة عشر بحرا"[9] .

و لكنّ عبارة أستاذنا المؤلف الدكتور النجار (وأنّ واضعه هو الخليل بن أحمد) تبدو أدقَّ توصيفا لعلمه المُتفرِّد، وأكثر شمولا لمكوّناته التي انبثق عنها نظامه الوزنيّ، الذي حدّده للشّعر العربيّ على نحو كان قبله مجهولا.

قال تعالى:" إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ." سورة آل عمران، الآية الكريمة 96 . وفي هذه الآية مسألةٌ، فقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ قال":سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن أوّل مسجد وُضع في الأرض قال:المسجد الحرام."[10]

و المعنى أنه لم يُوضع قبله بيتٌ، أو أنّه أوّلُ بيت وُضع للعبادة.قال ابن منظور (تـــ711هـــ): "وضعَ الشَّيءَ وضعاً: اختلقه."[11]

و إذن فقد وُفّق المؤلّف في استعمال لفظ (واضعه)، فالخليل هو أوّل واضع لهذا العلم،وهو الذي اختلقه أوّل مرّة.هذا وقد شملت ثقافة الخليل علوما كثيرة ومتنوّعة، فكانت له معرفة بالموسيقى والنّغم واللّحون والطّبّ والحساب والنّبات،وروى الحديث.أمّا في مجالات اللّغة والنّحو والصّرف فلم يُضاهه أحدٌ،فهو المبتكرُ لأكثر المفاهيم العلميّة وأهمّ الأنظمة الفكريّة اللّغويّة ومناهج التّحليل اللّغويّ التي تنتمي إلى علوم العربية.ويُعدُّ الخليلُ أوّل من درس علم

أصوات العربيّة دراسة منهجيّة مبنيّة على الاستقصاء الدّقيق والاستقراء الواسع،إذْ حدَّد مخارج الحروف ورسم صفاتِها المختلفةَ.

وكثيرٌ من العلماء ينسب للخليل طريقة الضَّبط بالشَّكل التي نستخدمها حتّى يومنا هذا، فيعدُّها من مُبتكراته، وقد وضع الخليلُ(معجم العين) وهو أقدمُ معجم يقابلنا على الإطلاق.

و قد اسعظم بعض ذوي القصد السَّيِّء،وبعض ذوي الغفلة،وبعض المقلّدين من الدَّارسين المُحْدَثين أن يتفرّد الخليل بهذه المنجزات العلمية،فراحوا يتخبَّطون،ويُخلطون في الآراء تخليطا،فنسبوا الدَّرس النَّحويَّ إلى اليونان مرّة ،وإلى السّريان أخرى،وشكّكوا في صحّة نسبة كتاب العَيْنِ إليه ،فنسبوه إلى الهنود مرّة،وإلى الصّينـــــيّين أخرى،وأنكروا أن يكون علم العروض من مبتدعاته،ومبتكراته، فزعموا واهمين أنّ العَروض العربيَّ وهو عَروض الخليل،صورة منقولة من عَروض اليونان".[12]

لهذا شدّد المؤلّف الدكتور النجار في بداية مُصنَّفه على :"أنّ العَروض علمٌ عربيٌّ لم يُنقل عن اليونانيّة أو الهنديّة كما يدَّعي المُدَّعون."وكان مستقلّ الرّأي في ذلك،يوافق ما يُوافق عن دليل،ويخالف ما يخالف إلى صواب،لأنه مستكمل الأدوات المؤهلة لذلك،و لم يذهب مذاهب بعض العلماء من العرب والمسلمين كالزَّبيدي الأندلسيّ (ت_1205ه) الذي ذهب إلى أنّ الخليل كان

عالما باليونانيّة فقال:"ويُروى أنّ ملك اليونانية كتب إلى الخليل كتابا باليونانيّة، فخلا بالكتاب شهرا حتّى فهمهُ، فقيل له في ذلك، فقال:

"فقلتُ:إنّه لا بدّ من أن يُفتح الكتاب ببسم الله أو ما أشبهه، فَبَنَيْتُ أوّل حرف على ذلك، فاقتاس لي، فكان هذا الأصل الذي عمل عليه الخليلُ كتاب المعَمّى."[13]

و قد تبنّى شوقي ضيف بعض آراء المستشرقين التي تزعم أنّ الخليل كان متأثّرا بالهنود واليونان والسّريان من غير أن يُشير إلى مصدر معيَّن،لكنّه أضاف إلى هذا الرّأي الشّائع أنّ الخليل:"عرف المباحث الصّوتيّة عند الهنود،وكانت قد نمتْ عندهم نموّا واسعا،وأضاف على ضوئها مادّة صوتيّة غزيرة،نقل منها تلميذه سيبويه في كتابه نُقولا كثيرة."[14]

و الحقُّ أنّ نشأة الدّرس العروضيّ جاءت على يد الخليل ضمن الجوّ الحضاريّ النّاهض عصرئذ،ولم تكن طفرة في عصر راكد أو متخلّف.وإذا سلّمنا باقتباس هذا العلم لأنّه على قدر من التّفوُّق فكيف نفعل بعشرات العلوم التي نشأتْ مع العروض كعلم الأصوات والمعجم والنّحو والصّرف والدّلالة والبلاغة والنّقد والتّفسير والفقه؟ هل نزعم أنّها منقولةٌ عن الأجانب لأنّها علوم مبتكرة؟

لقد كان العصر الذي عاش فيه الخليل حافلا بتأليف الكتب الجامعة للعلوم من الحديث يجمعه ابن جُريج.

إلى القراءات يدوّنها أبو عمرو بن العلاء (تـ 154هـ)،إلى الفقه يقيّدُ مادّته وأحكامه مالك (تـ 179 هـ) والشافعيّ(تـ 204 هـ) إلى التاريخ يبسطه الواقديُّ (تـ207 هـ) وتلاميذه،إلى الشّعر يجمعه السُّكريّ وغيره.

و"فضلا عن أنّ لقاء الخليل بحُنَيْنٍ بن إسحق هو محض خطأ لأنّ الخليل تُوفي قبل أن يُولد حُنَيْنٌ."[15]

فإنّ الخليل لم يُدرك عصر التّرجمة الحقيقيّ. فلقد تُوفي عام 175 هـ،على حين أن عصر تراجمة بغداد الذّهبيّ كان بين عامي(215هـ و256هـ) تقريبا،أي في القرن الثّالث.

"و لم يستطع أحدٌ من الدّارسين عربا ومستشرقين أن يُثبت أيَّ شيء من هذا التّأثّر المزعوم، فبقي الأمرُ ضمن الشُّكوك والظُّنون التي لا يُؤخذ بها في البحث العلميّ الذي يستندُ إلى أدلّة صالحة للاستدلال،لا إلى أقاويلَ أساسُها الاحتمالُ."[16]

منهجيّةُ دراسة البحور:

كتاب العروض العربيّ من أجود **تصانيف المؤلّف أستاذنا الدكتور النجار**، وهو لا يقلُّ فائدةً عن الجواهر في البحور والدّوائر، والوجيز الصّافي في علمي العَروض والقوافي من حيث حسنُ التّأليف وكثرة الفوائد مع إسهاب غير مُمِلٍّ، وقد سلك فيه طريقا سهلا في دراسة البحور،وسنُبَـــــيِّنُه تعميما للفائدة. وسنأخذُ على سبيل المثال بحر الطّويل.

أوّلا: تقديم البحر الطويل:

يذكرُ أستاذنا الأستاذ النجار البحرَ الطَّويلَ،[17] ويُبيِّن سببَ التّسمية، ويُعلّلُ ذلك ويستشهدُ بقول الخطيب التّبريزيّ:"الطويل سُمِّي طويلا لمعنيين، أحدهما أنّه أطول الشّعر، لأنّه ليس في الشّعر ما يبلغ عددُ حروفه ثمانية وأربعين حرفا غيرهُ، والثّاني أنّ الطّويل يقع في أوائل أبياته الأوتاد، والأسباب بعد ذلك..."[18]

ثُمّ يذكرُ بعض خصائص هذا البحر،ويحدِّدُ وزنه في دائرة المختلف:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن.

ثانيا:ذكر عَروض بحر الطَّويل وأضرُبه:

وله عروضةٌ واحدةٌ مقبوضةٌ(مَفَاعِلُنْ)، وثلاثة أضرب:

أ)الضّرب الأوّل سالمٌ (مَفَاعِيلُنْ).

ب)الضّرب الثّاني مقبوضٌ (مَفَاعِلُنْ).

ج) الضّرب الثّالث محذوفٌ (فَعُولُنْ).

ثمّ يُقَفّي على إثر ذلك بجدول توضيحيّ ليثبت القواعد ويرسخها ما أمكن:البحر،العروض(رقمها،حالتها،وزنها)،ثمّ الضّرب(رقمه الخاصّ ضمن عروضه،حالته،وزنه)، البيت في الشّعر،ثمّ يختم ذلك برقم الضّرب العامّ ضمن ضروب البحر[19]. و يشرع بعد ذلك كلّه في الاستشهاد بنصوص شعريّة من الشّعر القديم:

مثال العروض المقبوضة(مفاعلن) مع الضرب الأول الصحيح (مفاعيلن):

أَبا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُوراً صَحِيفَتِي فَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي الطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي[20]

وأمّا التّقطيع الشّعريُّ فهو تقطيع سليم ودقيق جدّا، قلّ أو عدُمَ وجود مثله في كتب العروض القديمة منها والحديثة، اللّهم إلاّ عند ابن جنّي، وذلك لأنّه يقطع البحر،ثمّ يضع الحركات والسّكنات، ثمّ يذكر التّفاعيل، ثمّ يضع خصائص التّفعيلات، وهذه الطّريقةُ أيسرُ الطّرائق وأوضحُها، ويمكنُ للطّالب المُبتدئ أن يفهم كيفيّة التّقطيع الشّعريّ. و يُعزِّز المؤلف النجار الشّاهدَ الأوّلَ بثانٍ وثالث

إمعانا وزيادة في التّفهيم، ويأتي بالبيت المصرّع الذي تأتي عروضه على وزن ضربه،أو ما يجوز في ضربه، وهو الذي تتغيَّر عروضه في القصائد التي يختلف فيها وزن العروض عن وزن الضّرب من حيث النّوع واللّقب، فيتغيَّر وزن الضَّرب تبعا لذلك، ويُماثل وزن العروض.

ثمّ ينتقل المؤلف إلى العروض المقبوضة (مفاعلن) مع الضّرب الثّاني المقبوض مثلها، ويأتي بشاهد آخر لطرفة:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ[21]

و هو لا يكتفي بذلك بل يعضدُهُ ببيت مُقفًّى،وهو الذي وافقتْ عروضُه ضربه في الوزن والرّويّ، دون أن تُؤدّي هذه الموافقة إلى تغيير في العروض بزيّادة أونقص:"ونُسمّي البيت بالمقفّى، وقد تقع التّقفيّة أكثر ما تقع في البيت الأوّل من القصيدة،ومع هذا فقد يُجري الشّاعر التّقفية مرّة أخرى أو مرّات في قصيدته،في مطلع كلّ فكرة،وهذا ليُدلّل على اتّساع مقدرته الفنّيّة وسُمُوّ موهبته الشّعريّة."[22]

ويصلُ المؤلف إلى العروض المقبوضة (مفاعلن) مع الضّرب الثّالث المحذوف (فعولن)، ويأتي بشاهد مشهور في العروض :

أَقِيمُوا بَنِي النُّعْمَانِ عَنَّا صُدُورَكُمْ وَإِلَّا تُـــقِيمُوا صَاغِرِينَ الرُّؤُوسَا.[23]

ثمّ يأتي بالبيت المصرَّع،وهو الذي دخله التّصريع،فتوافق عَروضه مع ضربه في الوزن والرَّوِيِّ،كما هي الحال في البيت المقفَّى ،إلاّ أنّ الموافقة هنا تتمُّ بتغيير في العروض إن بزيادة أو نقص.

هذا وقد أكثر المؤلف أستاذنا النجار من عرض الأبيات المقطَّعة تقطيعا مفصّلا عقب كلّ بحر مع الكتابة العَروضيّة، والرُّموز،والأوزان العروضية،أملا في السّير على نهجها،والنّسج على منوالها،حتى تتحوّل القُدرة العروضيَّة إلى مهارة عروضيَّة فائقة.

ثالثا:الزّحافات والعلل:

يترتّب على دراسة العروض التّعامل مع الزّحافات والعلل،بدلالالتها و مصطلحاتها الدّقيقة التي كثُرت بشكل جعلت بعضا من الدّارسين ينفُرون منها ويستبعدون التّعامل معها،وبعضا آخر يتعاملون معها،ولكن مع الشّكوى من كثرتها،وتقديم اقتراحات بخصوصها.وقد وجدنا المؤلّف أستاذنا النجار يتعامل مع العروض العربيّ كما هو،دون تغيير،حيث حافظ على الزّحافات والعلل بمعانيها ومصطلحاتها دون رفض لها،إيمانا منه بأنّ على الدّارس أن يتعامل معها مباشرة،حتّى مع كثرتها،فهو سائر على نهج الخليل لم يزغ عنه،وحافظ على هذا النّمط المألوف في ذكر الصُّور.

و في بحر الطّويل ذكر :الكفّ والقبض والخرم،وهنا يفصل هذا المصطلح تفصيلا:"وللخرم أسماءٌ بحسب مواضعه وهي تسعةٌ:الثّلم والثّرم والشّتر والخرب والعضب والقصم والجَمَم والعقصُ."[24]

ويختار بعد ذلك نماذج من عيون الشّعر العربيّ على ما سبق ذكره من زحافات وعلل،هذه النّماذج انتخبها وانتقاها من الأشعار المتناثرة في دواوين الشّعر العربيّ القديم،وقد ركّز الأستاذ النجار في اختياراته على الأشعار الجيّدة لكبار الشّعراء التي أخذت طريقها للغناء لرقّتها وعُذوبتها،فأصبحت أكثر شهرةً من قائليها،وأقربَ حضورا إلى الأذهان،وترديدا على الألسنة. وتناول بالضّبط هذه الشّواهد ليُسهِّل على القارئ قراءتها ووزنها من غير خلل أو تشويه،كما أنّه لم يترك مصطلحا واحداً يثير إهمال ضبطه لبسا أو تساؤلا من قبل القارئ بلا ضبط يزيل هذا اللّبس.

رابعا:الفوائدُ والتّنبيهاتُ:

وهنا يتعمّقُ المؤلّف،ويتعرّض إلى الخلافات والاختلافات عند العروضيّين،فهناك اتّجاهُ الخليل،واتّجاه الأخفش الأوسط والذين جاؤا من بعده، فيأخذ من كلا الاتّجاهين حسناته،متناولا في كتابه هذا جميع الصُّور التي أوردها العروضيُّون، محاولا أن يؤكّد كلّ صورة من هذه الصُّور بشواهدَ متعدِّدة من الشّعر العربيّ القديم.

ومن القضايا المُهمَّة هنا إضافةُ الأخفش ضربا رابعا مقصورا في بحر الطّويل (مَفَاعِيلْ)، وشاهدُهُ :

أَحَنْظَلُ لَوْ أَحْسَنْتُمْ وَ وَفَيْتُمْ لَأَثْنَيْتُ خَيْرًا صَادِقًا وَ لَأَرْضَانْ

ثِيَابُ بَنِي عُوفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ وَ أَوْجُهُهُمْ بِيضُ الْمَشَافِرِ غُرَّانْ[25]

حيث روي بيتا مُقيّدا،ولكنّ الخليل رواه مُطلقا بإقواء،فصار عنده من الضّرب الأوّل،وكذلك رواهُ أبو عمرٍو الشّيبانيّ مُطلقا،ورواه الفرّاء مُقيّدا كما رواه الأخفش.

و يتدخّل المؤلف بالشّرح والتّعقيب:"وقوله: لأرضانْ أي لأرضاني. وإذا أُطلقتِ القافيةُ كان إقواءً،لأنّ قافية البيت الأوّل تكون مكسورة لانتهائها بياء المتكلّم (لأرضاني) .وقافية البيت الثّاني تكون مرفوعة(وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ الْمَشَافِرِ غرّانُ).[26]

و يُغربل المؤلف الرّوايات المتعدّدة التي وردت في المسائل الخلافيّة في دواوين أصحابها،تمهيدا لاختيار ما يناسب ترجيحه،وينقدُ الرّوايات المصطنعة حينا والملفّقة حينا آخر، طمعاً في الحصول على صحّة زحاف،أو جواز حسن،أو مستقبح،أو قبيح.

و من المسائل الخلافيّة التي تعرَّض لها المؤلف أستاذنا النجار أن تجيءَ عروض الطويل محذوفةً (فعولن) بضرب محذوف مثلها،أو مقبوض (مفاعلن)،ونراه في هذه المسائل يعلّل ويرجّح،وهكذا يختم البحر بنظم للشّيخ أحمد الإسلامبولي. والكتابُ غنيٌّ بالحواشي المفيدة التي تخدمُ المتن،وتشرحُ غامضه،وتُناقش رأيا، أو تُقدّم وِجهة نظر جديدة تخدمُ علم العروض ،وتُعمق ثقافة القارئ.

وكما فعل المؤلف في البحر الطّويل فعل في سائر البحور،مُتّبعا في ذلك أساليب تربويّة ناضجة،تُراعي طبيعة هذه المادّة ومستويات إدراكها والمراحل الضّروريّة لتعلُّمها.ولا ننسى أنّ في الكتاب أمانة علميّة في الرّأي والنّقل جميعا،لا نكاد نمضي في الكتاب حتّى نُحسّها قويّة جليّة،كأقوى ما تكون الأمانةُ وأجلاها.

مادّةُ الكتاب:

لقد أعرض أستاذنا المؤلّف ونأى عن تذييل مُصنَّفه ببعض فنون النّظم المستحدثة، والأنماط الجديدة، وظلّ الشّعر العربيّ الأصيل الأثير إلى نفسه. حيث أن أشكالاً كثيرةً اتّخذها هذا النّظم العربي على مدى القرون التي أعقبت القرن الهجريّ الثّالث،إلى زمان النّاس هذا،مثل فنون الشّعر المعربة الخارجة على وزن أو تركيب البحور الخليليّة السّتّة عشر كالموشّح والدُّوبيت، والفنون الشّعريّة الجاريّةعلى ألسنة العامّة كالسّلسلة والقوما والكان كان والمواليا والنَّبَط

أو الشّعر النَّبَطي،والمسمّط والمزدوج والثّنائيات والثّلاثيات والرّباعيات والمخمَّسات والمسدَّسات والمسبَّعات والمتباينات.

و لعلّ انصراف أستاذنا المؤلّف الأستاذ النجار عن هذه الأشكال أنّها في جُملتها تبتعد عن الشّعر العربيّ الفصيح، الذي عرفه العرب في جاهليّتهم الأولى، وما تلا ذلك من عصور،بل هي أشكال نظميّة مستحدثةٌ،كما سوّغتْ ضروراتُ التّلحين والغناء،إضافة إلى عوامل أخرى الخروج على أنماط النّظم الخليليّة المعهودة،وأسهمت في التّساهل في نطق الألفاظ العربيّة الفصيحة ومجاراة النّطق العامّيّ.

الموارد والمصادر:

يقول المصنِّفُ:"وفيما يتعلّق بالموارد والمصادر لهذا الكتاب فقد تعدّدتْ مواردي،وكثرت مصادري،لأنّي لم أترك أمرا دون عَزْوٍ،وإنّما قمتُ بإسناد كلّ معلومة قطفتُها من هذه الموارد إلى أصحابها،وصرّحتُ بها في مواضعها من هذا البحث."[27]

لقد أكّد المؤلّف أستاذنا الدكتور رضوان النجار على كثرة مصادره وتنوّع موارده، و ذكرها مُصنّفة في المبحث الثّالث"عُيون الموارد وغُرر المصادر.[28]

وقد مُيِّز فيها بين ما يلي:

أوّلا:العُيون المطبوعة:

وهي مصادر شكّلت متنَ الدِّراسة،وهي تتوزَّع مابين كتب القافية، وكتب العَروض...ومما يبعث على الإعجاب اهتمام المؤلف بكتب التُّراث واعتمادُه عليها.فمحاسنُ التُّراث دائما كانت بادية لعينيه ،بارزة في دروسه ومحاضراته،ولكنّه لا يريد أن يأخذ منها إلاّ الأعمدة القويّة،والعناصر المتينة الصّالحة للبناء الجديد.ولسانُ حاله كما يقول خِدَاشُ بنُ زُهَيْرٍ العامريُّ من (البسيط):

وَ لَنْ أَكُونَ كَمَنْ أَلْقَى رِحَالَتَهُ عَلَى الْحِمَارِ وَخَلَّى صَهْوَةَ الْفَرَسِ[29].

ومن أهمّ كتب التُّراث التي اعتمدها في مُصنَّفه:الإقناعُ في العَروض وتخريج القوافي للصَّاحب بن عبّاد (ت_385 هـ) ، عَروض الورقة للجوهريّ (ت_398هـ) ، العقد الفريد (الجزء الخامس)، كتاب الجوهرة الثّانية في أعاريض الشّعر وعلل القوافي، لابن عبد ربّه (ت_328هـ) ،العُمدة لابن رشيق (456هـ) ، القُسطاس في العروض للزّمخشريّ (ت_538هـ) ، و القوافي للأخفش الأوسط (315 هـ) ، و كتاب القوافي للقاضي التّنوخيّ() ، والكافي في علم القوافي لابن السّرّاج (ت_550 هـ) ، و الكافي (الوافي) في العروض و القوافي للخطيب التّبريزيّ (502هـ) ... و غير ذلك كثير من مُؤلّفات الأقدمين.

وكان المؤلّف الدكتور رضوان النجار في كتابه هذا قديمًا يحاول التّجديد، فاستعان بما عُرف به الرّاسخون من أهل العلم من تدقيق في الجُزئيات، وتثبت في النّقل، وقُدرة على الإحاطة والجمع، وقوّة في الحفظ، واعتماد على المنطق .

ثانيا: الغُـــــرر المخطوطة:

إنّ ما وصلنا من مصنّفات قديمة تخصُّ علم العروض والقافية قليل جدّا،بحيث لا يُشكّل إلاّ نزرا يسيرا ممّا خلّفه علماؤُنا الأجلاّء،وقد عبّر عن هذه الفكرة بعضُ الدّارسين: "ونحنُ نعلم نُدرة المصادر القديمة في علم العروض،وقلّة ما نُشر منها. فأكثرُ مصادر العروض العربيّ، إمّا مفقود، أو مخطوط. و يكفي أن

نقول : إنّ أستاذ العروض الأوّل الخليل بن أحمد لم يصلنا تراثه العروضيُّ مكتوبا،وكذلك غيرهُ من العلماء. و لولا أنّ جمعا كبيرا من العلماء بعد الطّور الأوّل نقل ما خلّف السّابقون من تراث، و اهتمّ به ما وصلنا تراثهم."[30]

و قد أثبت المؤلف من الغُرر المخطوطة:الحواشي الأبشيطية على ألفاظ الرّامزة الخزرجيّة لشهاب الدّين الأبشيطي (تـ 883 هـ)، و الرّامزة الشّافية في علم العَروض والقافية(شرح الخزرجيّة) لضياء الدّين الأندلسيّ(تـ626هـ)، و الرّسالة الأندلسيّة لأبي الجيش الأنصاريّ الأندلسيّ (تـ549هـ)، و شرح الخزرجيّة في علم العروض للشّيخ زكريا الأنصاريّ،كما ذكر المؤلف كتبا أخرى كانت لا تزال مخطوطة حين صنّف كتاب العَروض العربيّ،وقد نالتْ بعضُ هذه الكتب المخطوطة حظّها من التّحقيق.

ثالثا:المصنّفاتُ العامّـــةُ:

مثل كتب النّقد،و كتب الأدب العامّة، وكتب أخبار الشّعراء وطبقاتهم،وشروح الدّواوين الشّعريّة.وذكر منها: ضرائر الشّعر لابن عُصفور الإشبيلي(تـ 663 هـ)، الطّراز لابن سناء المُلك (تـ 608 هـ) ، و المُستطرف من كلّ فن مستظرف، للأبشيهيّ (تـ 850 هـ) ، و مفاتيح العلوم للخوارزمي (تـ 236 هـ)، و مفتاح العلوم للسّكّاكي (تـ 626 هـ) ، و

منهاج البُلغاء و سراج الأدباء لحازم القرطاجنّي (تـــ684 هـــ) ، و نقد الشّعر لقُدامة (تـــ337 هـــ).

رابعـــــا:المؤلّفات الحديثـــةُ:

و هي جهود يمكن حصرها في صنفين اعتمدهما المصنّفُ

أوّلاً:صنف النُّقّاد والدّارسين الذين ألّفوا في القافية والعروض معا:

الإرشاد الشّافي على متن الكافي في علمي العروض والقوافي للدّمنهوري، أهدى سبيل إلى علم الخليل (العروض و القافية) لمحمود مصطفى (تـــ1899هـــ)، شرح تُحفة الخليل في العَروض والقافية لعبد الحميد الرّاضي، علم العروض والقافية لعبد العزيز عتيق (تـــ 1396 هـــ)، المتوسّط الكافي في علمي العروض والقوافي للأحمدي نويوات بن المليانى(تـــ 1999 م)...

ثانيا:صنفُ النُّقّاد والدّارسين الذين ألّفوا كتبا في العروض وفي غيره من العلوم ضمَّنوها شيئا عن القافية:

تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب لمحمَّد بن أبي شنب (1347هـــ) ، و المُرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها لعبد الله الطّيّب المجذوب (1424هـــ).

وختاما فإنا نرى أن معرفة أي كتاب لا يُمكن الإحاطة بها إلا بقراءته كاملا ومعرفة منهاجه وما يمتاز به عن غيره، وهاهو الكتاب، كتاب العروض العربي حاضرٌ بين أياديكم.

حفظك الله تعالى يا أستاذنا الأستاذ الدكتور رضوان محمد حسين النجار, وجزاك عن العربية و علومها خير الجزاء في الدنيا و الأخرة.

الإحـــــــالات

1. العاكوب عيسى عليّ:موسيقا الشّعر العربيّ ــ دار الفكر المعاصر ــ بيروت ــ ط1ــ 1417 ــ 1997 ــ ص7.

2. البيتُ تَمثّل به الخليلُ بنُ أحمدَ،وهو لعمرو بن معد يكرب في معجم الشّعراء للمرزُباني،تحقيق عبد السّتّار فراج،الهيئة العامّة لقصور الثّقافة(سلسلة الذّخائر) 1993،ص16.والأصمعيّات:الأصمعيّ(عبد الملك بن قريب) تحقيق:أحمد محمّد شاكر وعبد السّلام محمّد هرون،دار المعارف،ط3،ص175.

3. ابنُ جنّي(أبو الفتح عثمان) ــ تحقيق :عبد الحكيم بن محمّد ــ المكتبة التّوفيقيّة ــ ج1ص307. باب(في أنّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب).

4. أبو الحسن العَروضيّ:كتاب في علم العَروض ــ تحقيق:جعفر ماجد ــ دار الغرب الإسلاميّ ــ بيروت ــ ط1 ــ 1995 ــ ص27.

5. رضوان محمّد حسين النّجّار:العروض العربيّ(فنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي) مطبعة برصالي ــ تلمسان ــ الجزائر ــ ط1 ــ 1999/1419 ــ ص29.

6. محمد أحمد ورّيث: في إيقاع الشّعر العربيّ ــ الدّار الجماهيريّة ــ ليبيا ــ ط1 ــ 2000/1430 ــ ص183.

7. الجاحظ:البيان والتبيين ـــ تحقيق:عبد السّلام محمّد هرون ـــ دار الفكر ـــ ط1367/1948ـــ ج 3 ص 28.

8. ياقوت (الحموي الرُّومي): معجم الأدباء ـــ تحقيق:إحسان عبّاس ـــ دار الغرب الإسلاميّ ـــ بيروت ـــ ط1 ـــ 1993ـــ ج1 ص1262.

9. ابن خلكان:وفيات الأعيان ـــ تحقيق:إحسان عبّاس ـــ دار صادر ـــ بيروت ـــ ط1968 ـــ ج1ص244 .

10. أخرجه مسلم في المساجد 370/1 رقم 520.

11. ابن منظور:لسان العرب ـــ دار صادر ـــ بيروت ـــ ط1 ـــ 2000ـــ ج15ص231.

12. مهدي المخزومي:الفراهيدي عبقري من البصرة ـــ دار الشؤون الثقافية العامة ـــ بغداد ـــ ط1989 ـــ ص 117 .

13. الزّبيديّ(مرتضى محمد بن الحسين):طبقات النّحويّين واللّغويّين ـــ تحقيق:محمّد أبو الفضل إبراهيم ـــ دار المعارف ـــ مصر ـــ ط2 ـــ ص51.

14. شوقي ضيف: المدارس النّحويّة ـــ دار المعارف ـــ مصر ـــ ط7 ـــ 1968.ص32

15. المخزومي مهدي:الخليل بن أحمد الفراهيديّ:أعماله ومنهجهُ ـــ دار الرائد العربي ـــ بيروت ـــ ط2 ـــ 1986ـــ ص65،66.

16. قدّور أحمد محمّد:أصالةُ علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدّمة كتاب العين ـــ دار الفكر ـــ دمشق ـــ ط2 ـــ 1414 ـــ2003 ـــ ص19.

17. العَروضُ العربيُّ ص189

18. الخطيب التّبريزيّ:كتاب الكافي في العَروض والقوافي ـــ شرح وتعليق:محمّد أحمد قاسم ـــ المكتبة العصريّة ـــ بيروت ـــ ط1 ـــ 2003/1423 ـــ ص17.

19. العَروض العربيُّ ص 192.

20. البيت لطرفة بن العبد الجاهلي ، ديوانه 209 ، الجامع في العروض والقوافي لأبي الحسن العروضي97 ، الإقناع 68 ، الغامزة138 ، القسطاس 70 ، الدر النضيد 185 ، نهاية الراغب 123 ، الوافي 37.

21. البيتُ لطرفةَ بنِ العبد، ديوانه 209، الجامع97، الغامزة 138، الوافي37، المعيار30، نهاية الراغب124، القسطاس71، الدرّ 178.

22. العروض العربيُّ ص195.

23. البيت ليزيد بن حذّاقٍ العبدي الشّنّي كما في شرح اختيارات المفضّل 286/3، و أمالي ابن الشّجريّ 283/1. و هو في شرح المفصّل115/6، والعقد الفريد 325/6 ، و اللّسان (قوم) 225/12، والإقناع 6 ، و المفتاح 223 ، و العيون الغامزة 138 دون عزوٍ،وقد نُسب في حاشية الخطّيّة لسُويد بن حذّاق العبديّ أخي يزيد وهو وَهْمٌ.ويُروى في بعض المصادر (صاغرين رؤوسا).

24. العروض العربيُّ ص203.

25. الشّنتمريّ:شرح ديوان امرئ القيس – تصحيح :الشّيخ محمّد بن أبي شنب – الجزائر(دت) ص 199 و 530.

26. رضوان النجار: العَروض العربيُّ ص211.

27. ابن سناء الملك: دار الطّراز في عمل الموشّحات- تحقيق: جودت الرّكابي- دار الفكر- دمشق - ط3-1977 – ص46،47.

28. رضوان النّجّار: العروضُ العربيُّ ص31.

29. المصدر السّابق: ص46.

30. ابن قُتيبة: الشّعر والشُّعراء ـــ تحقيق:أحمد محمد شاكر ـــ دارالحديث ـــ القاهرةـــ ط1423/2003 ـــ ج2ص633.

31. ابن الدّهّان(أبو محمد سعيد بن المبارك):الفصول في القوافي ـــ تحقيق: محمّد عبد المجيد الطّويل ـــ دار الثقافة العربية ـــ دار الهاني للطباعةـــ مصرـــ ط1 ـــ 1412/1991ـــ (مقدمة المحقّق) ص6.

أثبته حاجي خليفة (تـــ1066هـــ) في كشف الظّنون عن أسامي الفنون 1744/2،وذكره كارل بروكلمان (تـــ1954م) في كتابه تاريخ الأدب العربيّ5/184.

جهـــود
الدكتور رضـــوان النّجّـــار الإيقاعيّـــة
قراءة في كتاب الوجيز الصّافي
في علمي العروض و القوافي

د. أمين مصري

الملحقة الجامعية بمغنية

جامعة تلمسان

مقدّمةٌ لابدَّ منها:

يُخطئ أيُّ دارس لكتابات أستاذنا المميز الدكتور "رضوان محمّد حسين النّجّار" عندما يرتئي دراسة هذه الكتابات، أو الإنتاجات العلميّة ضمن سياق معيّن، مستغْنيا عن نسقها المعرفيّ الخاصّ، أو ضمن نسق محدَّد متجاهلا السّياق المؤطّرَ الّذي تنْخرطُ فيه، لا لشيء إلاّ لأنّه (أي الدّارس) و هو يقوم بهذا الجهد، يكون قد أغفل المسوّغ المعرفيّ لهذه الكتابات، فالإنتاج العلميّ لـــ " رضوان النّجّار" متشكّل ضمن سياق و نسق مُجتمعيْن، لا